له. فقاموا وفتَّشوا، فلم يروا أحداً، فقال: أنشدنا أخرى، فأنشده ثالثة، فقال: هذه لك؟ قال: نعم. فصاح ذلك الصَّوت بعينه: يكذب، ما هي له، فقال له الأبله: فخبِّرْه ما هي لي، فلمن هي؟ فقال: لي. قال: ومَنْ أنتَ؟ قال: شيطانك الذي أعلمك قول الشِّعْر، فقال له: صَدَقْتَ، والله يحفظك عليَّ، ولا يفرق بيني وبينك.

وقال أبو الدر الرُّومي الشَّاعر: مَرِضَ الأَبْله، فدخلت [عليه] أعوده، فقال: ما بقيتُ أقدر أنظم شيئاً. قلتُ: فما سببه؟ قال: لا شك أَنَّ تابعي قد مات، وتوفي بعد ذلك في جُمادى الآخرة، وترك ثلاثة آلاف دينار.

[قلت: والدليل على صحة هذه الحكاية قول الشاعر: [من الرجز]

إني وكلُّ شاعرٍ من البَشَرْ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرْ][1]

السنة الثَّمانون وخمس مئة

[وفيها كتب زين الدين ابنُ نُجَيَّة الواعظ من مصر إلى صلاح الدين يشوِّقه إليها، وكان السلطان بدمشق، قال: أدام الله أيام مولانا السلطان الملك الناصر، وقرنها بالتأييد والنَّصر والتسديد، أترى ما يشتاق مولانا إلى مصر ونيلها، وخيرها وسلسبيلها، ودار مُلْكه ودارة فلكه، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها، ومقسم مقاسمها، وأُنس إيناسها، وقصور مُعِزِّها ومنازل عِزِّها، وجيزتها وجزيرتها، وبَرَكتها وبِرْكتها، وتعلق القلوب بقَلْيُوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومُرْتقى الهرمين، وروضة جِنانها، وجَنَّة رِضْوانها، ومشاهدها ومجامعها، ومساجدها وجوامعها، ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها، وآيات فضائلها.

وذكر ابن نُجية كلاماً طويلاً من هذا الجنس.

فكتب إليه السلطان: ورد كتاب الفقيه زين الدين ـ أدام الله توفيقه ـ لا ريب أن ساكن الشام أفضل، وأن أجر ساكنه أجزل، وأن القلوب إليه أميل، وأن زلاله البارد أعل وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الجمال فيه أجمل، والجمال به أكمل، وأن القلب به أروح، والروح به أقبل، ودمشق فعاشقها مستهام، وما على

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

محبها ملام، وما في ربوتها ريبة، ولكل نور بها شيبة، وساجعاتها على منابر الورق خطباء تطرب، وهزارتها وبلابلها تعرب وتعجم، وكم فيها من جواري ساقيات، وسواقي جاريات، وثمار بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورمان، وخيرات حِسان، وكون الله تعالى أقسم به فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[التين: ١] يدل على فضله المكنون، وقال ﷺ: «الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده»(١)، وعامة الصحابة اختاروا المقام بالشَّام، وفتحُ دمشق بكر الإسلام، وما ننكر أن الله ذكر مصر، ولكن على لسان فرعون بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لكن هذا خرج مخرج العَتْب له والذم، ألا ترى أن يوسف عليه السلام نقل منها إلى الشام.

ثم المقام بدمشق أقرب إلى الرباط، وأوجب للنشاط، وأين قطوب المقطم من سناء سَنِير؟ وأين ذُرى مَنْف من ذروة الشرف المنير؟ وأين لبانة البيان من الهرمين، وهل هما إلا مثل السلعتين؟ وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيله برد بردى في نقع الغليل؟ وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وإذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر ظهر بذلك قِصَرُ القَصْر، ولو كان لهم مثل باناس لما احتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه، ولا نأبى فضله كما أباه، وحب الوطن من الإيمان، ونحن لا ننكر أن إقليم مصر إقليم عظيم الشان، ولكن نقول كما قال المجلس الفاضلي: إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر، ولا نشك أن أحسن ما في البلاد البستان، ولعل زين الدين يرجع إلى الحق، ويوافق على ما هو الأحق.

قلت: عاب السلطان على ابن نُجية كون أصله ومنشئه دمشق، وفضَّل عليها مصر، وليست من طارفه ولا من تلاده، وقد كان أولى أن يتشوق إلى السلطان من غير وصف لما فيه مضاهاة لوطنه وبلاده](٢).

وفيها عَزَلَ الخليفة وزيره ظهير الدين أبا الفتح بن صَدَقَة، وكان نائبَ الوِزارة، ورتَّب مكانه أبا الفَتْح محمد بن عبد الملك، فأقام إلى سنة ثلاثٍ وثمانين، وولَّى كمال الدين أبا الفتح أحمد بن هُبيرة حِجْبة الباب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٠٠٥)، وأبو داود في سننه (٢٤٨٣) من حديث عبد الله بن حوالة، ولفظه: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده».

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها هَجَمَ السُّلْطان نابُلُس؛ كانت عساكر الشَّرْق قد وصلت إليه لنجدته: نور الدين قرا رسلان صاحب الحِصْن وآمِد، وعسكر دياربكر، ومظفر الدِّين، والعادل من حلب، وتقيّ الدين عمر، فخرج من دمشق، فنازل الكَرَك، ونَصَبَ عليها المجانيق، وكان من أكبر مهامِّه فتحه لكونه على طريق مِصْر، وبلغ الفرنج، فجمعوا الفارس والرَّاجل، وقصدوه، فنزلوا الواله قريباً من الكَرَك، فاغتنم السُّلْطان خُلُوَّ السَّاحل منهم، فسار على البَلْقاء، ونَزَل الغور، وهَجَمَ نابلس، فقتل وسبى، ونزل على سَبَسْطِيَة، وبها [جماعة من][1] الرُّهْبان والأقسَّاء، وعندهم الودائع، فطلبوا منه الأمان، وأن يُطْلقوا ما عندهم من الأُسارى، فأَمَّنهم، ثم سلك الغَوْر، وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق، وكان عنده شيخ الشيوخ عبد الرَّحيم وبشير الخادم رُسُل الخليفة مَرْضى، فطلبوا العَوْدَ إلى بغداد، فأَذِنَ لهم، فمات بشير بالسُّخنة، وشيخ الشيوخ بالرَّحبة.

وحج بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين.

وفيها توفي

إيلغازي بن ألبي[2]

ابن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق، قُطْب الدين؛ صاحب مارِدِين، كانت وفاته في جُمادى الآخرة، وخلَّف ولدين صغيرين، وكان جَوَاداً، شجاعاً عادلاً، مُنْصِفاً عاقلاً.

الحسين بن علي[3]

[بن أحمد] بن عبد الواحد بن شبيب، أبو عبد الله الطِّيْبي، سَعْد الدين، صاحب المخزن، كان فاضلاً، عند المستنجد بمنزلة النَّديم والسمير.

ومن شعره: [من الطويل]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٥٠٨ ، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٢٢ـ٢٢٣ ، و«الوافي بالوفيات»: ١٠/ ٢٦ـ٢٧ ، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٧ .

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٢/ ١٨٧ـ١٩٥ ، و«معجم الأدباء»: ١٠/ ١٢٦ـ١٤٧ ، و«فوات الوفيات»: ١/ ٣٧٧ـ٣٨١ ، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٤٤٧ـ٤٥١ ، وما بين حاصرتين من مصادر ترجمته.

فأنقَذَ مِصْراً من يدي كلِّ كافرٍ ... لنعماه لا عَقْلٌ لَدَيْه ولا دِيْنُ
إذا ما أرادَ اللهُ إهباطَ دَوْلةٍ ... تبيذقَ منها في الدّسوتِ فرازينُ[1]
ولما مضى فِرْعَوْنُها فَرَّ عَوْنُها ... وأدركَها موسى الكليمُ وهارونُ
وقد بقيتْ في نفس يعقوبَ حاجةٌ ... إلى سَيْفك الماضي هي الغَرْبُ والصِّينُ[2]

وقال: [من الطويل]

صُنِ النَّاس عمَّن مَدَّ كَفًّا إليهمُ ... بسوءٍ تَفُزْ بالحَمْدِ بين الخلائقِ
فما اكتسبَ النُّعْمانُ ذِكْراً مخلَّداً ... على الدَّهْرِ إلا صونه للشَّقائِقِ

وقال: [من الكامل]

ومُدامةٍ رَقَصَتْ لنا من دَنِّها ... بزجاجةٍ فخبا سنا المِصْباحِ
نَظَرَ الحكيمُ فلم يشكَّ بأنَّها ... شمسٌ بَدَتْ في غُرَّة الإصباحِ

وكانت وفاتُه في ربيع الآخر ببغداد.

عبد الرَّحيم بن إسماعيل بن أبي سَعْد[3]

أبو القاسم النَّيسابوري، شيخ الشيوخ ابن شيخ الشيوخ، ولقبه صَدْر الدِّين.

ولد سنة ثمانٍ وخمس مئة، وتوفي أبوه سنة إحدى وأربعين، فولي مشيخة الشيوخ إلى حين توفي في رحبة ملك بن طَوْق، وقد عاد من عند صلاح الدين في شعبان، ودُفِنَ إلى جانب موفق الدين محمد الرَّحْبي، وكان فاضلاً مترسِّلاً بين الخليفة وصلاح الدين، وكان يَلْبَس الثِّياب الفاخرة، ويتخصص بالأطعمة، فكان أهل بغداد يعيبون عليه حيث لم يسلك طريق المشايخ في التعفُّف عن الدُّنيا، والقناعة منها باليسير، مع لبسه القصير، والتزيي بزيِّ الصُّوفية، حتى هجاه محمود النعال في كان وكان، من أبيات:

كذا طريق الشِّبْلي مع الجنيد اي ... شيخنا يأكل حمل وحملاوه معه دجاج سمين

---

(١) تبيذق: أي صار بيذقاً، والفرازين جمع، مفرده فرزان، وهو بمنزلة الوزير للسلطان، واللفظان من اصطلاح الشطرنج.

(٢) القصيدة في «الخريدة»: ٢/ ١٨٩ .

(٣) له ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢١٠ـ٢١١ ، و«وفيات الأعيان»: ٧/ ٨٨ ، و«مفرج الكروب»: ٣/ ٢٥٧ ، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٧ .

تبعت سنة نبيك تطيب ثوبك بطيب ولـلـدّنـا تـجـمـع كـذا شـروط الـدِّيـن

وعُمِلَ العزاء ببغداد والمَوْصل ودمشق، ورثاه ابنُ المنجم المِصْري، فقال: [من المديد]

يـــا أخِـــلاَّئـــي وحـــقِّـــكُـــمُ مـــا بـــقـــي مِـــنْ بـــعـــدكُـــمْ فَـــرَحُ

أيُّ صَـــدْرٍ فـــي الـــزَّمـــان لـــنـــا بـــعـــد صَـــدْرِ الـــدِّيـــن يَـــنْـــشَـــرِحُ

وولي مشيخة الرباط بعده صفي الدِّين إسماعيل.

محمد بن قرا أرسلان[1]

نور الدين صاحب حِصْن كيفا الذي أعطاه صلاح الدين آمِد، ترك ابنه قطب الدين سُكْمان[2] صغير، عمره عشر سنين.

أبو طاهر بن عوف[3]

مدرِّس المالكية بالإسكندرية، كان يروي «الموطأ»، وكان شيخاً فاضلاً، صالحاً، وعمَّر طويلاً.

السنة الحادية والثمانون وخمس مئة

فيها قطع السُّلْطان الفرات، ونَزَل على حَرَّان سادس عشرين صفر، وكان مُظَفَّر الدِّين بن زين الدين يكاتبه، ويحثُّه على قَصْد الجزيرة، ويقول: عندي كل ما تحتاج إليه من المال والغرامات، وأحمل إليك خمسين ألف دينار. فلما قَطَعَ الفرات لم يَرَ شيئاً من ذلك، وقيل له: قد مال إلى المواصلة، فأرسل إليه يطلبُ المال، فأنكر، وأشير على السُّلْطان بحمله إلى قلعة حلب، فراسل السُّلْطان وقال: أنا أنزل عما بيدي من البلاد، وأخدمك بقية عمري بغير شيء. فاستقرَّ أن ينزل عن قلعة حَرَّان والرُّها، ويبقى بيده البلدان، فنزل، ثم أعادهما السُّلْطان إليه في آخر السنة.

---

(١) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٥٣.

(٢) في (ح): ظهير الدين بن سكمان، وهو تحريف، والمثبت مما يأتي ص ٣٠٤ من هذا الجزء.

(٣) هو إسماعيل بن مكي بن عيسى بن عوف، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٢٢ـ١٢٣، و«الديباج المذهب»: ١/ ٢٩٢ـ٢٩٥، وفيه وفاته سنة (٥٨١هـ).